التناص اللغوى فى سياق الشعر الحداثى

إعداد الباحثة
امل عيسى ابراهيم ليلة
باحثة مسجلة لدرجة الدكتوراة- قسم اللغة العربية

مقدمة :

إن فكرة الاقتباس ليست جديدة على النقد العربي، فثمة مايؤيدها من تراث ضخم أخذ في مناقشة ماكان من أوجه التشابه بين الشعراء، سواء أكان ذلك على مستوى اللفظ أو المعنى؛ فقد وعت الأراء النقدية العربية طبيعة الإبداع الشعري منذ عصره الأول من ناحية التفاعل والتداخل والتقاطع والتعالق بين إبدعات شاعر وشاعرآخر، تحت مُسمَّيات متعددة منها: السرقة الشعرية، المعارضة الشعرية، أوالأخذ، أو لتضمين، أو الاقتباس.

يقوم الشعراء في هذا النمط الشعري "الاقتباس" باستقطاب بعض النصوص الدينية فى "القرآن الكريم"، أو "السنة النبوية المطهرة"، ليس على سبيل المعارضة ، وإنما على سبيل السياق أو الموقف التى يستدعيها الاقتباس. فاستحضار النص "القرآني" أو الديني بما له من حضور راسخ وأثر فى نفس المتلقى، وقدرة النص الشعري على تفعيل إسارته ودلالاته من إبداعية النص الديني وقداسته. ولا شك "أن تطعيم الشعر بالمفردة القرآنية، أو بالصورة القرآنية يرفع قيمة الشعر، ويكسبه كثيراً من القوة والقدرة والجاذبية، لا لما لها من قدسية فحسب. ولكن لما لها من قيمة بلاغية ومعنوية كذلك "(١)، فالاقتباس "القرآنى"هو آلية يحول بها الشاعر نصوصه الإبداعية من جهتى الرؤي والاتساق بنية وإيقاعاً ،بحسب سياق "القرآن الكريم"، ونستطيع القول بأن"القرآن الكريم" هو نتاج (قرائى / كتابى)يحدث فى العمل الإبداعى عن طريق رمز الإنتاج الشعري بثقافة قرآنية تؤثر فى النص على مستويات مختلفة ؛ وفقاً لفهم المبدع وأدواته وآلياته التى يستعملها، وكلما كان الإنتاج عملاقاً وخلاقاً استطاع أن يجلى تلك الآلية بإبداع يقل شأناً عن "النص القرآنى"– عندما التقى ابداع الشاعر مع النص القرآنى وكان العمل الشعرى له إيحاءات أوسع لأن الركيزة الأساسية تثرى النص.

١ – التناص الدينى فى الشعر العربي المعاصر فى مصر – أمل عيسى ليلة –رسالة ماجستير – كلية البنات – جامعة عين شمس ٢٠١٦ م – ص ٣ .

وعلى وفق الرؤى الشعرية التى يتوسل بها الشاعر فى إبداعة الشعرى فهو يُعوّل على الذات، وقد يتوسل بالآليات الخارجية مستعيناً بما فيها من رخم يدْعم ابداعه ويعنى شعره عن طريق الرمز.
وهنالك أسباب لظهور الاقتباس "القرآنى" فى الشعر المصري الحديث والمعاصرمنها:
الخصوصية المميزة للغة العربية– لغة " القرآن الكريم" ومالها من مذاق مميز بلحظه القارئ المتشبعة روحه بها ، وبطرائق نظمها ، ولذا اتفق مع من يرى أن الشعراء عندما كانوا يستدعون مقتبسين من المعجم " القرآنى العظيم"، وإنما كانوا يحاولون إثراء النص الشعرى بالثراء الدلالى وتنوعه للنص القرآنى الذى يتفاعلون معه فى نصوصهم الشعرية.
النشأة الدينية لأغلب الشعراء المصريين، حيث تعلموا فى الكتاتيب والمعاهد الدينية فكثرلديهم توظيف النص القرآنى بأشكال متعددة.

أولاً : الاقتباس من لغة "القرآن الكريم".

كان "القرآن" – ولا يزال– المورد الأساسى الذى ينْهل منه شعراء الأمة العربية والإسلامية فى نظمهم للشعر والنثر ، فلقد استفاد الشعراء ويستفيدون من هذا المعين الذى لا ينضب، وكيف لا وقد غدا"مصدرإلهام للذات الشاعرة ، تتفيأ ظلال لغته ، وتتأمل فى حضرة الكلام الإلهى، وتنهل من ينابعه المختلفة ، وتتزوّد ماشاء الله لها من إعجازه ، وتنّوع أساليبه ، واختلاف إشاراته، ووفرة مخاطباته ، وتستمد الذّات المبدعة شاعريتها البشرية من شاعرية النص القرآنى".(١)
ولا شك فى أنَّ الشعراء يتعاملون بأساليب مختلفة ؛ فكل شاعر له طريقته فى التعبير، ولذلك نجد أن تعاملهم مع النص "القرآنى" يختلف من شاعر لآخر ، كمافى شعر الدكتور يويف نوفل؛ حيث أنه يحافظ على سياق المادة المقتبسة حيناً وتحويرها حيناً آخر، ذلك أنه ينقل الآيات المقتبسة من سياقها القديم، وتحويرها إلى سياق جديد إنما يرمى لبلورة مواقفه الشعوريّة التى تكشف عن

١ – الصوفية في الشعر المغربي المعاصر ، المفهوم والتجليات – محمد بن عمّاره – شركة النشر والتوزيع مدارس – المغرب – ط١ – ٢٠٠١ م – ص ١٥٦ .

مكوناتها لنفسية، وتعكس انفعالاته العاطفية، حيث يقول فى قصيدة (هى وعيون الذكريات) حين يُقلِب الشاعر فى ذاكرته مع مدينته الباسلة (بور سعيد) قائلاً:

أنسيتى يوم كنا في غضون الأمس نَخْتالُ على الدّرب مليّا
كوُريْقات الربيع الحلو تهتز على الأغصان إذ تنْهلُ ريّـا
وشعاع قرمزى زاخر يضفر خيط الفجر إكليلا وضيّـا
وأرى خدّيك ريّانَ من الأنـداء والأضـواء فتّاناً نديـا
وأرى فى عينيك حبّات من الكرْم تشعّ الحبّ والودّ الشهيّا
وتطيعينى فتصبينى إذا ماكنت قد أبديت فى الموقف رأيا
قرآنا الناس شخصا قد أحالته يدُ الرحمن إنساناً سَويـّا
لم يظنوا أن سرّاً غامضا يجثم خلف الغيب مجهولا خفيّـا
لم يظنوا أنّ حبا مات بالأمس سيبقى فى رؤى الأيام حيّـا(١)

اقتبس الشاعر عذب مفرداته من لغة "القرآن الكريم" كما فى (مليّا) والتى اقتبسها من قول الله تعالى :"قال أراغب أنت عن ءالهتى يا إبراهيم لئِن لم تنته لأرجمنك وهجرنى مليا "(سورة مريم :الآية ٤٦) والمعنى أى: لئن لم تسكت لأرجمنك بالحجارة واهجرنى زمناً طويلاً.

(خيط الفجر) قال تعالى:"وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر "(سورة البقرة : الآية ١٨٧)

(نديّا) قال تعالى: "وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينتٍ قال الذين كفروا للذين آمنواْ أى الفريقين خيرُ مقاما وأحسن نَدِيّا "(سورة مريم الآية : ٧٣)

(سوياً) قال تعالى :"يأبتِ إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فالتبعنى أهدك صرطاً سوياً"(سورة مريم :الآية : ٤٣)

١ – ديوان – كما تهاجر الطيور – شعر – د/ يوسف نوفل – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م – ص ٣٦ – ٣٧ .

(حيّا) قال تعالى :"وسلم عليه يوم ولد ويوم يموتُ ويوم يبعث حيًّا "(سورة مريم الآية : ١٥) تكررت تلك المفردة (حيّا) على مدار السورة أربع مرات فى الآيات (١٥ – ٣١ – ٣٣ – ٦٦)، ولم يقتصرالشاعر على اقتباس المفردات القرآنية فحسب ؛ بل إنه اقتبس السياق القرآنى لقصة الصديقة" مريم" عليها السلام، فى سورة "مريم".

ارتوى الشاعر من النص القرآنى حتى نضح بأصداءه العذبة ؛ ليوظفها فى مراده الشعرى.

ومن الذين تشربوا النص القرآنى الشاعر أحمد سويلم ، كما فى قصيدته (عروتنا وثقى):

عروتُنا وثقى

لاتنفصم ُولا تتمزقُ فى الريح
عروتنا وثقى
تجعلنى فارسَك المحبوب
وركبانَ سفينتك
وشاطئك الآمن
عروتنا وثقى ..
مهما عاندت الأيام
ومهما انغلقتْ كفُّ الزمنِ علينا
عروتنا .. سوف تعيدك ثانية لى
أجمل ..
أطيب .. أنقى عشقاً
لأوافيك وأفتح لك أحضان الشوق
عروتنا وثقى ..
لاتقبل أن تنفصم ولا تنفلتْ
عروتنا

لا تقبل أن نسقطها من أيدينا
أونجعلها تُفلتْ! (١)

أتخذ الشاعر من الأجواء القرآنية سبيلا، ومن البنية التكرارية دربا كما فى (عروتنا وثقا) والتى تكررت على مدار القصيدة خمس مرات؛ حيث أنه اقتبسها من قول الله تعالى:"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم"(سورة البقرة الآية: ٢٥٦)

– قال تعالى:" ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور"(سورة لقمان الآية:٢٢)

والمعنى : يفوض أمره كله لله فقد تمسك وتعلق واعتصم بالعهد الأوثق الذى لا نقض له .نرى الشاعر كيف استعمل التعبير القرآنى غير أنه حوره وغيره ليناسب مقصوده الشعرى.فى هذا السياق من الاقتباس يقول الشاعر خالد أبو العلا، في قصيدته (الدماء وهامش لسيد النخيل) والتى تتحدث فيها عن القضية الفلسطينية قضية "المسجد الأقصى"تلك القضية التى أرّقت الجميع:

قالت : اخرج من هذى القرية
واسكن قرآن الفجرورتل
من شر الوسواس الخناس،
من نجم يعلو فوق "الأقصى"
وصليل الأجراس (٢)

اقتبس الشاعر من آي النص القرآنى، قال تعالى :"أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق اليل وقرءان الفجر إن قرءان الفجر كان مشهودا"(سورة الإسراء الآية ٧٨)

١ – ديوان – رعشة فى الأفق – شعر –أحمد سويلم – ط ١ – دار الشروق للطباعة والنشر ٢٠٠٢ م – ص ٢٠ – ٢١ .

٢ – ديوان – هوامش لها – خالد أبو العلا – ص ٧٢ .

– قال تعالى فى سورة الناس " قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس"حيث أنه وظفه بأسلوب وافق مراده الشعرى، وهذا اقتباس كلى .وفى قصيدة (وتكفى ابتسامة رضوى) للشاعر أحمد على منصور، والتى كتبها فى رثاء رفيق حياته ...حين يقول:

ورضوى ..عماد الكسير؛

ورضوى .. سِناء الضرير!!

... ...

...

فيها ...

(أيتها النفس المطمئنة ارجعى)،

ارجعى لربك (راضية مرضية)

ادخلى .. ادخلى ؛

(وادخلى جنتى)(١)

اقتبس الشاعر من لغة "القرآن" ماياسب موقفه المحزن، قال تعالى في سورة الفجر"يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، وادخلى في عبادى وادخلى جنتى"

مستعملا بلاغة الحذف أو "مانسميه البياض بالرمز بالنقاط، أوبدونها وقد استعان بالسرد الشعرى، وتوظيف الحوار"(٢). كل هذا فى سياق الاقتباس من آىّ الذكر الحكيم، وهو اقتباساً كلياً.وهنالك من الشعراء من استدعى القص القرآنى كما فى شعر فاروق شوشة عامة وديوان موال بغدادى خاصة، حين يقول فى قصيدة – دار العلوم:

راودتنا الحياة سبحاً وغوصا

١– ديوان – أضغاث أيام الغريب – أحمد على منصور – ص ١١٨.

٢ – أصوات النص الشعرى – د/ يوسف نوفل – ص ١٤.

لمْ يجدْ يوسفاً ولا كان شط !(١)

تأثر الشاعر بالقص القرآنى إذا به يذكر جانباً من قصة نبي الله "يوسف" –علية السلام – عندما راودته امرأة العزيز، ولكن أيام "زليخة " كان " يوسف"، أما فى أيام الشاعرفلا يوجد يوسف، وكأن الشاعر أراد أن يقول إن الماضى يعيد نفسه بصورة أسوأ مما كان . أما فى قصيدة (هذى بلادى لم تعد كبلادى) للشاعر فاروق جويدة، والتى يقول فيها:

ردوا إلى أمى القميص فقد رأت مالا أرى من غربتى ومرادى
وطن بخيل باعنى فى غفلة حين اشترته عصابة الإفساد
شاهدت من خلف الحدود مواكبا للجموع تصرخ فى حمى الأسياد
كانت حشود الموت تموح حولنا والعمر يبكى والحنين ينادى(٢)

يستنكر الشاعرالحالة التى حلت على البلاد من فساد وسلب وفقر واستعباد؛ الأمر الذى دعاه لأن يقول (هذى بلادى لم تعد كبلادى) متأثراً فى تجربته بالقص القرآنى فى فكرة (القميص) أى قميص يوسف عليه السلام (عندما رد إلى أبيه "يعقوب "،عليه السلام – فارتد بصيراً بعد أن كانت عيناه قد ابيضتا من الحزن)(٣)، كذلك ردوا لأمه/ مصر قميصه فقد ترى مالايراه فى غربته، وفكرة القميص هى تلك القوة الخارقة، ونراه اقتبس من قول الله تعالى "اذهبوا بقميص هذا فألقوه على وجه أبى يأتى بصيراً واتونى بأهلكم أجمعين "(سرة يوسف الآية :٩٢)

كذلك يقول الشاعر عز الدين إسماعيل لنفس فكرة قميص يوسف – عليه السلام، فى قصيدة بعنوان (ذات يوم):

نقضى زماناً باهت اللون وننعى حظنا
نقضى زماناً لم نخط فيه حرفا

١ – ديوان موال بغدادى – فاروق شوشة – ص ٨٠.
٢ – ديوان – ماذا أصابك ياوطن – فاروق جويدة – مطبعة الشروق – القاهرة – ٢٠١٠ م – ص ١٤.
٣– التراسل الدينى فى الخطاب الشعرى المعاصر – ص ١٠٥.

نعيش فيه صفحة بياضها من عين يعقوب(١)

كل من الشاعرين – كما نرى– قد فجرَّ من القصة القرآنية الدلالة التى تتفق مع سياقه الشعورى وأبعاده النفسية . وكأن الشاعر يستنكر حالة العمى التى أصبت الناس، فهم يرون الفساد والانحلال ...! وكأنهم لا يرون شيئاً !

هكذا نرى شعراء الحداثة والمعاصرة كيف تأثروا "بالقرآن الكريم " بألفاظه ومعانيه، وكيف اتخذه سبيلا فى التعبير عن معاناتهم النفسية والوطنية والاجتماعية.

لقد أدرك الشعراء المعاصرون دور السياقات القرآنية وأثرها فى إبراز تجاربهم الشعرية، فكان الاقتباس من القرآن الكريم لفظا ومعنى.

ومن الظواهر اللافتة فى الخطاب الشعرى الحداثى استدعا الحديث النبوى الشريف والاقتباس منه بوصفه جزءاً من التراث؛ فانشغل الشاعر بهذه الأحاديث ، وعمل استدعاء بوصفها أساسا راسخا فى العقيدة الإسلامية.

اقتبس منه الشعراء كل على حسب قدرته وأدواته، فمنهم من اقتبس منه لفظاً دون معنى ومنهم من اقتبس منه معنا دون لفظ.

ثانياً : الاقتباس من الحديث النبوى الشريف:

اقتبس الشعراء الحداثيون والمعاصرون من "المعجم القرآنى العظيم"، كذلك اتخذوا من السنة النبوية المطهرة، معيناً خصباً يعبرون به عن معاناتهم ووفائهم لموروثهم الدينى، كما فى شعر كثير من شعراء الحداثة والمعاصرة. ومن السابقين فى هذا الاقتباس أحمد محرم ، وحفنى ناصف ، وحافظ إبراهيم، وغيرهم.

يعد أحمد محرم من أقوى تعبيراً وانضج رؤية من حفنى ناصف، فهو يمزج الحديث النبوى الشريف، بالواقع المعاصر مباشرة، من خلال عاطفة قوية ومعايشة عميقة، وإحساس حاد، ففى قصيدته التى يستقبل فيها العام الهجرى الجديد، يفتتح قصيدته بمطلع يركز فيه غايته من

١ – الشعر المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – د/ عز الدين إسماعيل – ص ٣٣.

القصيدة، ويرمز إلى ما سيأتى عبر ابياتها الطويلة، ويحمل رؤية آملة ومتفائلة بالرغم من كل شئ، حيث يطلب من الجمهور أن يحيى الهلال ويحيى أمه النيل لتحقيق الرجاء والأمل:

حيو الهلال وحيو أمة النيـل واستقبلوا العيد عيد العصر والجبل

يا أيها العامُ يزجى كل مرتقب من الرجـاء ويُدنى كل مأمـول(١)

وبعد أن يشيد بالهجرة والمهاجر– صلى الله عليه وسلم – يركز على تقديم الملمح العام الذى يضعه تحت أعيننا كأمة (ترجو) و(تأمل) فيتحدث عن (صادق العزم) و(الهمه) التى لا يستطيع (ريح الضلال) أن تعصف بها ويقرر فى آداء واضح صريح:

سنَّ النبى أيام هجــرته مـن صادق العزم شرعا غير مجهول

مضى على الحق لم تعصف بهمته ريح الضلال ولم يحفل بتهويـل

وبعد أن يتعرض للسيرة، وينفى أحداث الصراع بين المهاجر الأعظم "محمد " – صلى الله عليه وسلم – وبين قريش التى هاجت وسجلت بكل (هندى قاطع ، وأهدت على وأد الدعوة وصاحبها – صلى الله عليه وسلم– وهزيمتها المروّعة فى النهاية، فإنه ينتقل ليضع الدرس المستخلص أمام الشعب المصرى والدنيا كلها، فيستعيد الحديث عن العزيمة وتأثيرها الفعال فى مواجهة الجيوش والأساطيل، ويختصر المسألة كلها فى البذل والتضحية والعمل حيث لا حياة بدون ذلك، ولا مجد أيضا:

النفس تغلبُ إن صحّت عزيمتها قتل الجيوش وتدمير الأساطيل

ولن ينال مصون المجد طالبـه إلابغالٍ من الأعلام مبـذول

مأبعد النجح عمن لامضاء لـه وأضيع الأمرين القال والقيـل

الناس شعبـان كلـه عمـل يبغى الحياة وشعب كالتماثيـل

هنا يأخذ الشاعر الملمح المؤثر فى الهجرة النبوية، وهذاالبذل والتضحية، ليتحدث عن المجد (المصون) و(النجح) المتفوق، ثم يضع المفارقة البسيطة بين الشعب الذى يعمل والشعب الذى لا

١ – ديوان – مجد الإسلام – أحمد محرم – ج٢ – مطبعة الفتوح الجديدة – دمنهور ١٩٩٢ م – ص ١٩٣ .

يعمل (كالتماثيل)، وهو في كل الأحوال صراحة أوضمناً إلى العزم والمثابرة والجهاد المضفى من أجل تحقق الغايات الوطنية، وإنقاذ الوطن من محنته، وهو لا يخفى مقصده، حين يلتفت نحو السنة الهجرية، ويخاطبها مؤثراً فيه لوعة الأسى وحرقة الأحزان على ما أصاب (مصر) وما جرى تحت التسلط الإنكيزى:

ماحجة وقفت (مصر) تودعُها خذه مكانك خلف الدهرأوزولى
كمْ قادح فيك لولا ما يؤيُدنا من قوة الله أضحى غير مأمول
لم تتركى منزلاً آمناً ولم تدعى لمد من الخوف عيشاً غير مملول
ماتبصر العين من شئ يلوح لها إلا رأت عنده تمثال (عـزْريلَ)

وبرغم المرارة التى تلمحها فى الأبيات، وخاصة فى البيت الأخير، إن الشاعر مازال يتفجر بالأمل، النابع من شخصية النبى "محمد" – صلى الله عليه وسلم –ومن تاريخه أو يرى أن الإنقاذ – تأسيساً على الحيثيات التى تعرضت لها قصيدته – آتٍ لامحالة، ولا يتوانى عن ضرب أمثلة تاريخية تؤكد صدق نظريته، وتدعم تفاؤله، مثل قصة أصحاب الفيل وهزيمتهم النكراء:

انظر إلى البيت هل ضاعت محارمه لما أغار صاحب الفيل
رماه بالطير ملء الجو مسرعة تهوى إليه وترميه بسجيل
نصون مصر ونحميها بما عملت من الشوارع والعوالى والسرابيل

لقد ألح (محرم) فى أكثر من قصيدة على معالجة قضايا الوطن والأمة من خلال التمسك بأهداب الشخصية المحمدية، واستدعاء ملامحها من أجل الإنقاذ والنجاة، وقد لاحظت أن الهجرة كانت أكثر المناسبات التى يطلق من خلالها اناته على مصاب مصر والمسلمين، وأيضاً يكشف عن تأثره بما جرى فى مصر أوئل القرن العشرين الميلادى (النصف الأول من الرابع الهجرى)من أحداث الفتنة الطائفية بين الأقباط والمسلمين." لقد كانت الفتنة الطائفية ومايصاحبها من أحداث تنذر بعواقب وخيمة ، خاصة وأن الإنجليز وأعوانهم كانوا يؤججون هذه الفتنة ، لإتمام السيطرة

على مصر، والتزّرع أمام العالم بمهمة الحفاظ على حقوق طائفة أمام طائفة، وقد لعب الشعر فى هذه المناسبة دوراً هاما لدك الفتنة، وقمع الخطر."(١)

وكأن هذا الماضى الذى حدث فى أوائل القرن العشرين يعيد نفسه فى بدء القرن الحادي والعشرين هذا القرن الذى أندلعت فيه الثورات والتغيرات وأحداث الفتن الطائفية بل والمتاجرة باسم الدين وسفك الدماء، الأمر الذى جعل الشاعر فاروق جويدة يذكرنا بوصية النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم – فى حجة الوداع، واصفاً حال الصحابة – رضوان الله عليهم، بعد أن ذكر بعض صفات النبى – عليه الصلاة والسلام – حين يقول:

وتودع الدنيا بوجــه مشرق فيه الجلال ..ونبل كل صفاتِ
تبكى الجموع وأنت تهمس بينها قد لا أراكم فى الحجيج الآتِ
لكننى أودعتُ في أعناقكم قرآن ربى ... سيرتى وحياتى
لالن تضلوا إن تمسكتم به فخلاص هذى الأرض فى آياتى

يوصى النبي –صلى الله عليه وسلم– أمته بأن تمسكوا بكتاب الله وسنتى؛ حتى لا تضلوا أبدا، وكأن الشاعر يستنكر ماحدث لهذه الأمة من عبث، وسفك دماء، ومتاجرة باسم الدين. مقتبساً من قول النبي الأعظم –عليه الصلاة والسلام – "تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ما تمسكتم بهما. كتاب الله وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض"(أخرجه مالك مرسلا ، والحاكم مسنداً وصححه)

اتخذا الشاعر من قول النبى – صلى الله عليه وسلام –قناعاً للتعبير عن رفضه للواقع .ثم يقول:

أنا فى رحابك جئت أحمل توبتى خجلا من شططى ومن زلاتى
أنت الغفور وكان ضعفى محبتى وعذاب قلبى كان فى هفواتى
أشــكو إليك الآن قلة حيلتى وهوان عمرى .. حيرتى وشتاتى

١ – ديوان – مجد الإسلام – ج٢ – ص ١٩٧.

الشاعر أمام قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – يحمل توبته خجلا من زلاته داعياً ربه بما دعى به النبى الكريم عند خروجه من الطائف التى ذهب إليها بعد أن سدت مكة آذانها واستغشت ثيابها وأعينها وقلوبها عن سماع الحق، ورؤيته وقبوله.

وكأن الشاعر يعانى تجاه وطنه ماكان يعانيه النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم ـ فقد اقتبس من دعاء النبى " اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ....."، واستطاع توظيفها بطريقة رائعة ومؤثرة .

ومن الذين تألق فى شعرهم هذا الاقتباس عبد المنعم سالم ، حين يقول معبراً عن غضبه من الحالة التى وصل إليها الناس من إنحدار:

"لاحول ولاقوة إلا بالله"
أعوجت طرقات الناس
أوقات الناس
وأحلام الناس
أفهام الناس(١)

الناس يرفض طرقات الناس، وأوقاتهم، وأحلامهم معبراً عن هذا كله بقول النبى – صلى الله عليه وسلم – "لاحول ولا قوة إلابالله " والذى ذكر فى سبع روايات منها:"عن أبى موسى – رضى الله عنه – قال: كنا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولاغائبا ،ولكن تدعون سميعاً بصيراً، ثم أتى علىّ وأنا أقول فى نفسى لاحول ولا قوة إلا بالله . فقال : ياعبد الله بن قيس قل لاحول ولاقوة إلا بالله. فإنها كنز من كنوز الجنه، أوقال، آلا أدلك على كلمه هى كنز من كنوز الجنة:"لا حول ولا قوة إلا بالله "(رواه البخارى ومسلم)

١ – قراءات فى دواوين من شعراء الإسكندرية – ص ٢٥.

اتخذ الشاعر الحديث النبوى الشريف قناعاً يعبر من خلاله عن رفضه لما وصل إليه الناس، ووظفه الشاعر بطريقة مناسبة.

ونجد الشاعر رفعت سلام من أكثر شعراء الحداثة وفاءً للموروث الدينى، وتعلقا به ، وهذا مايؤكده الدكتور محمد عبد المطلب بقوله" إن رفعت سلام من أكثر شعراء جيله وفاءً للموروث القديم فى مستواه الإنسانى، ومن أكثرهم إفادة منه ، حتى ولو كانت الإفادة على الضدية والرفض"، فرفعت سلام يستلهم الحديث النبوى فى عدة مواقف منها:

فيسرقنى النعاس والنسيان
على سلم المساء أسيراً كسيراً
فأنام أنام ساعت سيرتى وفسدت
سمعتى ومابلغت ما لا عين من قبلى رأت
أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر فلاتسألونى
إن رأيتمونى مرحاً دون مناسبة أمضى متوهجاً بالغموض الغريب(١)

الشاعر – فى ذلك – يستحضرالخطاب النبوى فى قوله – صلى الله عليه وسلم – فما يروى عن ربه "قال أعددتُ لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر."(٢) فمسلك الذات التى قادها إلى سوء السيرة وفساد السمعة يتبعه بالضرورة ، عدم الوصول إلى عتبة الإشراق العلوى، فى عالم بعيد عن الإدراك البشرى. وقد تم استدعاء نصوص الحديث النبوى فى ديوان – إشراقات – خمس مرات، وبهذا فقد انفتح النص الشعرى لرفعت سلام على التراث بكل مصادره ومقوماته وفنياته، كما أدى إلى العلاقة القوية بين النص الشعرى .وأنماط التراث المختلفة . وأصبح الشاعر مرتدياً أقنعة تراثية متعددة داخل نصوصهم الشعرية واستطاع الشاعر توظيفها بطريقة متناسبة مع سياقها، حيث أنه اقتبس اقتباساً لفظياً. أما الاقتباس المعنوى فقد نال

١ – ديوان – إشراقات – رفعت سلام – ص ٤٣ . (بدون تاريخ)

٢ – صحيح البخاري – باب صفة أهل الجنة – ج٤ – ص ١١٨ – أخرجه مسلم – ج١ ص ٢٨٢ – والترمذى .

اهتمام كثير من شعراء الحداثة، حيث اقتبسوا من الحديث النبوى الشريف اقتباساً معنوياً، اتخذوه قناعاً للتعبير عن كل مايشغلهم، كما فى شعر كثير من الشعراء المعاصرين. ففى ديوان "موال بغدادى" للشاعر فاروق شوشة، والذى يستدعى فيه قول النبى الأكرم –عليه الصلاة والسلام – حيث يتعجب ويستنكر الحلة التى عليها الأمة:

هـل هذا الممـــات بعث ؟

وهل للتائهين الظماء يوم الوصول ؟

كيف تاه الركب المعـز زمـانـا

والطـريق الـذى ابتـدئنا طـويل

كيف لا يهتدى ؟ وقد وضح الدرب ...

وفينـا الـهـدى

وفينـا الدليـل(١)

وكأن الشاعر فى ختام قصيدته يدعو الأمة للعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله لتعود لها عزتها وأمجادها حين يشير من طرف خفى إلى قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – "تركتُ فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا:كتاب الله وسنتى".

منذ عنوان القصيدة – طوبي لصناع السلام ، والتى تذكرنا بقول النبى –صلى الله عليه وسلم – " عن جندب بن عبد الله أنه سمع سفيان يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ذات يوم ونحن عنده طوبى للغرباء فقيل من الغرباء يارسول: قال أناس صالحون فى أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم ".(رواه أحمد فى مسنده)

وحتى ختمها بهذا المقطع من الحديث الشريف متخذاً منه قناعاً يعبربه عن تعجبه واستنكاره لحالة الأمة العربية والإسلامية.

١ – ديوان – موال بغدادى – ص ١٠٧ – ١٠٨.

وممن شغلوا بقضايا الأمة العربية والإسلامية؛ حيث اقتبس من الحديث الشريف وتخذه قناعاً للتعبير عن مراده، الدكتور يوسف نوفل، حين يقول متعجباً مستنكراً:

يا أله !!! يال .. ..لّ ا ا ا هـ !!
ماهذا الكابوس اللابشري ؟ !!
ورأى .. ..
وأرى بارود ... .. نيراناً .. وحشوداً ..... جيشا ...وعتادا
... عدّة
ودماء ...
"ورباط الخيل" !!!!!
معقوداً بشعارات!!!

من الجميل أن يجمع الشاعر فى مقطوعة شعرية واحدة عدة أساليب ،بل من الأجمل أن يجمعها الشاعر فى سطر شعرى واحد، هذا مانراه بالفعل فى المقطوعة السابقة؛ ففى البيت الأول:

أسلوب نداء فى (يا أله).
أسلوب تعجب (يا أله !!!).
أسلوب البياض بالرمز بالنقط (يال ...ل).
أسلوب التقطيع (لّ ا ا ا هـ).
أسلوب التكرار الموجود فى جميع الأساليب السابقة.(١)

إنها نظرة شاملة ، وصورة كاملة، جمعت كل معانى الرفض لهذا الواقع، وكأن الشاعر أراد أن يقول بكل الأساليب أرفض ولا أقبل هذا الواقع (اللابشرى ؟!!) تعددت الأساليب لتعدد المغازى، أدى ذلك لثراء وعمق تجربته الشعرية ، مقتبساً من معانى الحديث الشريف من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما جاء فى صحيح البخاري، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما

١ – ديوان – البحر أنثاه البحيرة – ص ٦٤ – ٦٥.

قال :قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة"،(١) والنواص: جمع ناصية، وهى الشَعر المسترسل على جبهة الحصان ، أى أن الخير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخيل.

وكانت العرب تسمى الخيل خيراً. ونرى تأكيد هذه الحقيقة فى القرآن الكريم فى سورة "ص" على لسان سيدنا سليمان – عليه السلام– "إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب"(الآية :١٣ –٢٣).

فكما نرى من الآية الكريمة أن سيدنا سليمان – عليه السلام – عرض على الصافنات الجياد، فقال أحببت حب الخير عن ذكر ربى، أى أنه سمى الخيل خير اً، فلم يقل أحببتُ حب الخيل، بل قال إنى أحببت حب الخير؛ وهذا تأكيد لحقيقة أن الخيل معقود فى نواصيها إلى يوم القيامة. ونلاحظ أيضاً فى سورة "العاديات"، التى تتحدث عن الخيل، أن الله عزوجل يقسم بالخيل فى قوله تعالى: " والعاديات ضبحا" ثم يقول بعد ذلك " إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد"، فنرى مرة أخرى ذكر الخير فى صورة تتحدث عن الخيل، وهذا دليل على أن الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم ، وبما أن يوم القيامة لم يأتى بعد، فإن الخيل لايزال مرتبطاً بها الخير، وسيبقى الخير مرتبطاً بالخير ومعقود فى نواصيها إلى يوم القيامة.

تألق هذا الاقتباس الشعرى أيضاً فى شعر نوال مهنى حين تقول:

نظمت القصيدة بلفظ جميل كسوت المعانى ببرد الخليل
وصغت شعورك فناً بديعاً بطعم جديد وذوق أصيل
بيان كما السحر فى وقعه ونبر رخيم يفوق الهديل(٢)

الشاعرة تمدح أحد الشعراء المعاصرين بمناسبة مناقشة كتابه – أبو حيان التوحيدى، فى رابطة الأدب الإسلامية، فربما دعاها السياق لتتذكر قول النبى الأكرم – صل الله عليه وسلم– " حدثنا

١ – فتح البارى – شرح صحيح البخاري – الحاشية رقم ١.
٢ – ديوان أنغام ثائرة – شعر نوال – ص ٧٧.

عبد لله بن مسلمة عن مالك عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر أنه قال قدم رجلان من المشرق فخطبا فتعجب الناس – يعنى لبيانهما – فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إن بعض البيان لسحر".(١)

(رواه البخارى فى صحيحه)

تألق هذا النمط من الاقتباس كما فى شعرد/ بسيم عبد العظيم حين يتحدث عن وطننا العزيز (مصر) وشعبها الأصيل وجندها الباسل قائلاً:

أيا شاعر الحق لامهرب فشعب الكنانة لايلعب
صدقت فمصر بتاريخها ينابيع خير فلا تنصب
وشعب الكنانة خير الجنو د ، يسوح الجهاد فلا مهربْ
هو الصبر زاد لهم دائماً ومن زاده الصبر لا يغلب(٢)

هذه القصيدة معارضة لقصيدة – أيا شعب مصر، للشاعر عبد الرحمن العشماوى ،يتحدث الشاعر عن مصر وتاريخها العظيم، أن جند الكنانة خير أجناد الأرض، مقتبساً هذا المعنى من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – " عن عمروبن العاص– رضى الله عنه – : حدثنى عمر – رضى الله عنه – أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم –يقول: " إذا فتح الله عليكم مصربعدى فا تخذوا فيها جند كثيفاً ؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض " فقال له أبو بكر ولم ذلك يارسول الله ؟ قال: "لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة " وفى رواية " إذا فتح الله عليكم مصرا استوصوا بأهلها خيراً فإن فيها خير جند الله".

وقالت دار الإفتاء، إن الأحاديث المذكورة صحيحة المعانى عن النبى عليه الصلاة والسلام– ولا طعن على مضامينها بوجه من الوجوه، وقد وردتْ بأكثر

١ – صحيح البخارى – رقم ٥١٤٦ – باب إن من البيان لسحر.
٢ –ديوان – لو تطلبين العمر – شعر – بسيم عبد العظيم – ص٢٣.

ألفاظها فى خطبة عمروعبد بن الله – رضى الله عنه – وهى خطبة ثانية مقبولة وصحيحة بشواهدها، رواها أهل مصر وقبلوها ولم يتسلط عليها بالإنكار أو التضعيف أحد ينسب إلى العلم فى قديم الدهر أوحديثه ولا غيره بمن يردها أو يطعن فيها فى هذه الأزمان هواً أوجهلاً.

وأكدت على مدار هذه الأحاديث المذكورة على أن جند مصر خير أجناد الأرض لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة، وعلى الوصية بأهلها، لأن لهم ذمة ورحما وصهرا، وكلها معان صحيحة ثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – تتابع على ذكرها وإثباتها أئمة المسلمين ومحدثوهم ومؤرخوهم عبرالقرون سلفا وخلفا، ولا يقدح فى صحتها وثبوتها ضعف بعض أسانيد؛ فإن فى أحاديثها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر الذى احتج به العلماء، وقد اتفق المؤرخون على إيراد هذه الأحاديث والإحتجاج بها فى فضائل مصر من غير نكير.

وبجميع هذه المعانى : مارواه سيدنا عمرو بن العاص – رضى الله عنه. من أحاديث مرفوعة عن النبى الأكرم – صلى الله عليه وسلم – فى خطبته الشهيرة التى خطب بها أهل مصر المحروسة على أعواد منبر مسجده العتيق بفسطاط مصر القديمة، وكان ذلك فى نهاية فصل الشتاء وأول فصل الربيع حين يحتفل المصريون بما سمى "شم النسيم" الموافق فى الأيام " حميم النصارى" أو" خميس العهد" عند المسيحيين؛ حيث كان يمضى الناس فى أواخر شهر مارس أو أوائل إبريل على الخروج للربيع، وكان يخطب بذلك فى كل سنة وقد سمعها منه المصريون وحفظوها ، وتداولوها جيلا بعد جيل، ودونوها فى كتبهم ومصنفاتهم وصدروا بها فضائل بلادهم، وذكروا رواتها فى تواريخ المصريين ورجالهم كباراً عن كابر ، وأطبقوا على قبولها والإحتجاج بها فى فضائل أهل مصر عبر القرون؛ لا يذكر منهم منكر ، ولا يتسلط على القدح فيها أحد ينسب إلى علم أوحديث أوفقه ، بل عددها من مآثرخطب سيدنا عمروبن العاص – رضى الله عنه – ونفيس حديثه، ولم يطعن فيها طاعن فى قديم الدهر أوحديثه . وأضافت : "أسند عمرو بن العاص – رضى الله عنه – فى الخطبة الحديث المرفوع فى وصية النبى – صلى الله عليه وسلم – وأهل مصر خيراً ؛ عن عمرو بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فأستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة ".

وتابعت الدار " أسند أيضاً الحديث المرفوع فى فضل جند مصر عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال سمعت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يقول " إذا فتح الله عليكم مصر؛ فاتخذوا فيها جندا كثيفا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض " فقال أبو بكر الصديق – رضى الله عنه– لِمَ يارسول الله ؟ قال: لأنهم وأزواجهم وأبنائهم فى رباط إلى يوم القيامة."(١)

بذا يكون قد نهل الشعراء المعاصرون وارتووا من هذا النهر الصافى / الحديث النبوى الشريف، واقتبسوا منه لفظاً ومعنى، واتخذوه قناعا يعبرون به عن مرادهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً:القرآن الكريم .

ثانياً :الحديث النبوى الشريف .

ثالثا: الدواوين الشعرية.

١ – أحمد سويلم – ديوان– رعشة فى الأفق – ط١ – دار الشروق للطباعة والنشر– ٢٠٠٢ م.

٢ – أحمد على منصور– أضغاث أيام الغريب– الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ٢٠١٤ م.

٣ – أحمد محرم – مجد الإسلام – ج٢ – مطبعة الفتوح الجديدة – دمنهور ١٩٩٢ م .

٤ – بسيم عبد العظيم – لو تطلبين العمر– القاهرة ٢٠١١ م .٤ – خالد أبو العلا– هوامش لها – الهيئة العامة للكتاب – القاهرة – ط١–٢٠٠٧ م.

٥ – رفعت سلام – ديوان – اشراقات – (بدون تاريخ).

٦ – فاروق جويدة – ماذا أصابك يا وطن – دارالشروق للطباعة والنشر ٢٠١٠ م.

٧ – فاروق شوشة– موال بغدادى – القاهرة – ٢٠٠٧ م.

١ – صحة الأحاديث فى فضل مصر وأهلها – دار الإفتاء المصرية – جريدة اليوم السابع – الجمعة ١٤ أغسطس ٢٠١٥ م – ص ١.

٨– يوسف نوفل – كما تهاجر الطيور– الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة – ١٩٩٠م.
وديوان – البحر أنثاه البحيرة (إبحار فى مرايا الذات) هيئة الكتاب – القاهرة ٢٠٠٨ م.

رابعاً : المراجع .

١ – أمل عيسى ليلة – التناص الدينى فى الشعر العربي المعاصر فى مصر – رسالة ماجستير– كلية البنات – جامعة عين شمس– ٢٠١٦ م.
٢ – دار الإفتاء المصرية – صحة الأحاديث فى فضل مصر وأهلها – جريدة اليوم السابع – الجمعة ١٤ أغسطس – ٢٠١٥ م.
٣ – سنن أبى الدرداء – كتاب العلم – من سلك طريقا.
٤ – فتح الباري – شرح صحيح البخارى– الحاشية رقم ١.
٥ – فوزى خضر – قراءة فى دواوين من شعراء الإسكندرية – هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالأسكندرية ٢٠٠٦ م.
٦ – عز الدين إسماعيل– الشعر المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – دار الكتب العربى– القاهرة ١٩٦٧ م.
٧ – محمد إبراهيم الطاووس – التراسل الدينى فى الخطاب الشعري المعاصر– دار النهضة العربية – القاهرة ٢٠٠٢ م.
٨ – محمد بن عمارة – الصوفية فى الشعر العربي المعاصر، المفهوم والتجليات – شركة النشر والتوزيع مدارس – المغرب – ط١ – ٢٠٠١ م.
٩ – يوسف نوفل– أصوات النص الشعري– مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – ط١ –١٩٩٥ م.